Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 214

Women and the Narrated Violence

Dr. Tarek Elnoman

Abstract

This paper revolves around the problem of violence against women from a larger perspective.

It goes beyond the polarization presented in the majority of modern and contemporary feminist discourses. The paper is divided into four parts.

The first part is titled as (Being and Circles of violence) and it deals with the idea of violence as an essential aspect of human's nature and with violence as an omnipresent phenomenon ruling the human condition.

The second part, which is titled as (Linguistic violence) introduces and analyses the Arab culture perspective of speech and discourse as a violent act.

In the third part which is titled as (Silence of violence and violence of Silence) the dilemma of both choices imposes itself as an embodiment of the human condition. Finally, the fourth part, which is titled as (Women and the Narrated violence), looks at the role culture plays in establishing and incarnating of violent stereotypes about women as they are present in the Old Testaments and how these stereotypes were reproduced in the Arab culture.

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 215

المرأة وعنف المحكي

د. طارق النعمان *

الملخص

تطرح هذه الورقة إشكالية العنف الموجه ضد المرأة انطلاقاً من منظور أوسع يتجاوز نطاق الاستقطاب الحدي: الرجال/النساء. وهي في هذا السياق تنقسم إلي أربعة أقسام: حيث يركز القسم الأول - المعنون بـ«الوجود ودوائر العنف» - علي علاقة الإنسان بالوجود بوصفها علاقة عنف، وعلي العنف بوصفه ظاهرة كلية الوجود وحاكمة للشرط الإنسانى. ثم يأتي للقسم الثاني المعنون بـ«العنف اللغوي» ليركز علي العنف المضمَّن فى الكلام من خلال استعراض لرؤية الثقافة العربية للكلام بوصفه فعلاً عنيفاً. أما القسم الثالث المعنون بـ «صمت العنف وعنف الصمت» فيأتي؛ ليجسد مأزق الإنسان بين عنف الكلام وعنف الصمت. وأخيراً يأتى القسم الرابع المعنون بـ«المرأة وعنف المحكي» ؛ ليركز على دور الثقافة في تأسيس وتكريس صور نمطية عنيفة حول المرأة. وذلك من خلال قراءة مكثفة لبعض ملامح صورة المرأة فى العهد القديم، وكيف أثرت هذه الصورة للمرأة في الوعي العربي؟.

---

* مدرس في كلية الآداب - جامعة القاهرة.

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 216

حضوره هذا، بداية من عنف الإلقاء بالإنسان في هذا العالم وإشكالية هذا الإنسان المقذوف به في العالم دونما إرادة منه، وقذفه أيضاً خارج هذا العالم رغماً منه على نحو ما تجسده وتوجزه بشجن إنساني رهيف صورة «الشيل» في رباعية جاهين القائلة:

مرغم عليك يا صبح مغصوب ياليل
لا دخلتها برجليا ولا كا نلي ميل
شايلني شيل دخلت أنا في الحياه
وبكره خ أخرج منها شايلني شيل
عجبي! (٤)

وما يصاحب هذه الصورة من عنف متمثل في دلالات الإرغام والإكراه والغصب والإجبار وعدم الرغبة والإرادة إزاء حضور الإنسان وغيابه في هذا العالم، مروراً بالعنف الطبيعي الماثل في ظواهر وكائنات طبيعية عنيفة وكل ما ينجر عنها من آثار ومفعولات عنيفة ومولدة للعنف، فضلاً عن العنف المادي الإنساني المتمثل في كثرة عديدة من الممارسات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتقنية، وصولاً إلى أرهف وألطف وأخبث صور العنف الرمزي الممارسة عبر هذه المستويات وما عداها من مستويات أخرى: ثقافية ومعرفية وأيديولوجية وإعلامية ...إلخ. ولا يخفى طبعاً أن هذه الصور والتجليات للعنف لا تتواجد هكذا صافية على نحو يسهل فيه التمييز بين أشكالها أو بين المستويات الحادث فيها العنف. بل إنها كثيراً، وفي غالبية الأحوال، ما تكون متداخلة ومتآزرة فيما بينها على نحو يصعب فيه مواجهة موقع أو مستوى من مواقع أو مستويات اشتغال العنف من دون الانجرار والتورط في مواجهة مع ماعداه من مواقع ومستويات أخرى. ذلك أن العنف يتسم بمرونة شديدة وقابلية فريدة للانتقال والتحول من مستوى إلى آخر ومن صورة إلى أخرى، بل لعلنا لا نغالي إذا ما قلنا: إنه يكتسي طابعاً أثيرياً. لعل ما سلف يكاد يكون بدهيًا، إلا أن التذكير به يبدو

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 217

مفتتح

أنا كل يوم أسمع.. فلان عذبوه
أسرح في بغداد والجزاير وأتوه
ما اعجبش م اللي يطيق بجسمه العذاب
واعجب من اللي يطيق يعذب أخوه
عجبي! [١]

على رجلي دم.. نظرت له ما احتملت
علي إيدي دم.. سألت ليه؟ لم وصلت
على كتفي دم وحتى على راسي دم
أنا كلي دم.. قتلت؟ والا اتقتلت؟
عجبي!! [٢]

«يا حلاج
الشر قديم في الكون
الشر أريد بمن في الكون» [٣]

١ - الوجود ودوائر العنف

أن نتحدث عن العنف لا يعني أننا نتحدث عن حكاية واحدة وحيدة اسمها العنف، أو أننا نتحدث مثلاً، عن حكاية التخلف بمعانيه الاقتصادية والسياسية والثقافية والمعرفية... إلخ، في مقابل التقدم، ذلك أن العنف منسرب في الفضاء الكوني كله، في المجتمعات كلها المتخلفة والمتقدمة، القديمة والحديثة، وإن اختلف في صوره وتجلياته وأنواعه ودرجاته وأسمائه أيضاً. فالعنف إذاً كلي الحضور، وعنيف جداً في

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 218

الكثير من الأحوال يرسِّم حدوداً وطبيعة، بل وكذلك صورة الآخر والعلاقة به.

من ثم وفي ضوء هذا الوضع المركب والمتداخل والإشكالي لا تصبح مسألة مواجهة العنف الواقع على المرأة مسألة منفصلة عن إشكالية العنف بكل أبعادها وامتداداتها وتجلياتها ولا عن عنف الثقافة ذاتها و ثقافة العنف المخترقة للفضاء الكوني والتاريخي. لكن مع ذلك تظل ثمة خصوصية فريدة للعنف الواقع على المرأة وللعنف الموجه من الرجل ضد المرأة في سياق تكييف أغلب، ما لم نقل: كل أنواع وأشكال العنف الأخرى. وذلك نظراً لطبيعة العلاقات الحميمة التي يفترض أنها تربط الرجل بالمرأة كأم أو زوجة أو أخت أو ابنة أو حتى مجرد صديقة أو زميلة، فضلاً عن كونها أولاً وأخيراً شريكة في الإنسانية، وفي ظل هذه النقطة الأخيرة أعني الحميمية التي يفترض أنها تربط الرجل بالمرأة عبر كل هذه المواقع والأدوار أو حتى عبر بعضها فقط، فإن السؤال يفرض نفسه بشدة حول كل من أسباب العنف ومفعولاته وآثاره، وكذلك وسائل مواجهته، كما هو مضمن في محاور الندوة، فضلاً طبعاً عن تحديد مفهومه. ولاشك أن إدراك أسباب العنف والوعي بمصادره يمثل خطوة أساسية وتأسيسية في كيفية مواجهته. وهنا ومن دون تردد تبدو الثقافة والخطابات المكونة لها هي المكون الحاسم، بل ورأس الحربة في حكاية العنف ضد المرأة. ذلك أنه يمكن الزعم أن جميع أشكال العنف المادي وكذلك الرمزي ولدته سواء على نحو واعٍ أو غير واعٍ الخطابات والأنساق المعرفية المرسِّمة والمنمِّطة لصورة المرأة وأدوارها الاجتماعية، وخصوصاً الخطابات الدينية والقانونية والعرفية والفنية والأدبية والإعلامية بكل ما لعبته ومازالت تلعبه هذه الخطابات من أدوار سواء في تأسيس أو تكريس أو إعادة إنتاج العنف الموجه ضد المرأة، ومرة أخرى سواء كان هذا على مستوى الوعي أو اللا وعي. وذلك لأن هذه الخطابات والأنساق متورطة في ألعاب السلطة والتسلط، والقوة والاستقواء، ولأنه على رغم كل ما أحرزته وحققته المرأة من مساحات في الفضاءات الاجتماعية المختلفة عبر نضالها الطويل والممتد مازال

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 219

مهماً في سياق موضوع هذه الورقة «العنف الواقع على المرأة ووسائل مواجهته وطرق اجتثاثه» حيث أصبحت مقولة: (اجتثاث العنف الواقع على المرأة) موضوعاً للعديد من الندوات،على سبيل المثال وهى ندوة أقامها اتحاد المحامين العرب في القاهرة في أبريل ٢٠٠٤، وقد شارك الباحث فيها، فضلاً عن تكرار تيمة الاجتثاث هذه في الطروحا ت النسوية.ومن هنا تأتى أهمية التذكير بما سلف رغم أنه قد يبدو بدهيًا للبعض :

أولاً: لأن كل هذه الأشكال من العنف واقعة على المرأة كما هي واقعة على الرجل أيضًا، وإن كان بدرجات وصور مختلفة.

ثانياً: لأن العنف الواقع على الرجل تتعدى آثاره ونتائجه إلى المرأة كذلك، ومن ثم لا يغدو العنف الواقع على المرأة مقصوراً على العنف الواقع عليها بشكل مباشر، بل إنه يتعداه ويتجاوزه على مستوى الآثار والمفعولات إلى العنف الواقع على الرجل كذلك، وبهذا يصبح العنف الواقع على المرأة عنفاً مزدوجاً بل ومتضاعفاً.

ثالثاً: وهذا هو الأهم، أن العنف الواقع على المرأة من الرجل لم يمض أبداً بلا ثمن، ولن يكون قط مجانياً أو بلا مقابل على مستوى مردوداته وعوائده الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية. بل إنه يمكن القول: إن ضرائبه تكاد تكون متصاعدة وربوية، وخصوصاً في ظل عولمة اليوم بكل ما فيها من التباس وبكل ما يصاحبها من هيمنة عسكرية واقتصادية وسياسية ومعرفية وإعلامية؛ إذ أصبحت المرأة تمثل ورقة خطيرة وملتبسة من أوراق ضغط هذه العولمة ومن أوراق مناهضتها أيضاً.

رابعاً: وهو مالا يقل أهمية عما مضى ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً أن ممارسة العنف ضد المرأة لا تنفصل بحال عن إشكالية العلاقة بالآخر، سواء كان الآخر العرقي أو الديني أو المذهبي أو الثقافي أو حتى الطبقي... إلخ، مما يعني أن عنف الرجل تجاه المرأة لا يمضى دونما مردود على صعيد العلاقة بالآخر، بل إنه يمكن القول: إنه في

أي اجتثاث العنف،حيث الضمير هو ضمير العنف،وما تثيره هذه العبارة من تداعيات وأسئلة ودلالات. أولا: إنَّ العنف مرسَّم من خلال استعارة «الاجتثاث» هذه بوصفه نباتا أو نبتاً ضاراً متجذراً في تربة ما، لنقل شجرة ضارة ذات جذور غائرة وممتدة، ومن ثم عنف الاستعارة، ثانيا: إنَّ هذه الاستعارة تنطوي على تصور ضمني بأنه يمكن بالفعل التخلص من العنف مثلما يمكن اجتثاث أو اقتلاع شجرة سامة والتخلص منها مرة واحدة وإلى الأبد، لكن هل التخلص من شجرة واحدة سامة يعني التخلص من جميع الشجر السام ؟ والجواب بالطبع معروف، ثم هل ترسيم أو تمثيل العنف بوصفه شجرة يعد مجازاً وافياً بمقاربة ظاهرة العنف ضد المرأة عبر كل تنوع صورها وخفاء وتحولات تجلياتها؟

ربما يكون الجواب الأوفق أن يقال: إن استعارة ا لاجتثاث هنا ترسِّم العنف بوصفه نباتاً شيطانياً طفيليا و ليس شجرة،أو لبلاباً قابلاً للامتداد والانتشار الكثيف في كل اتجاه.

ثالثاً ، هل يمكن فعلاً على المستوى العملي اجتثاث العنف الواقع على المرأة بكافة صوره، هذا على نحو ما تحيل إليه ألف ولام الجنسية المضمنة في الضمير من إطلاق؟ وإذا كانت خبرات التاريخ المعروفة لنا حتى الآن لا تصادق على مثل هذا الإمكان فما هي، رابعا، الكيفيات والطرائق، والوسائل والوسائط التي يمكن تحقيق هذه الغاية أو هذا الحلم عبرها، قد يجيب البعض أن إشاعة قيم التنوير والحداثة من عقلانية وحوار وإقناع .. إلخ، فضلاً عن إشاعة ونشر الوعي النسوي والجندري هي السبيل الوحيد إلى ذلك، إلا أن شيوع هذه القيم في المجتمعات المنتجة والمصدرة لها لم ينجح كما نعرف جميعاً في اجتثاث العنف الواقع على المرأة،بل إن بعض صور التطرف النسوي والجندري ولدت ودعمت صوراً أخرى من الانكفاء النوعي المتمثل في ازدهار المثلية الجنسية والمثلية الاجتماعية، سواء في الغرب أو في مجتمعاتنا، ثم خامساً، على المستوى النظري و العملي ، أين يمكن أن توجد هذه اللغة المثالية التامة

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 221

المهيمنون على إنتاج هذه الخطابات وتأويلها ذكوراً، ومن ثم فإن حتى الهامش المتاح للمرأة على مستوى الإنتاج والتأويل مخترق في قطاعات غير قليلة منه بهيمنة المنظور الذكوري. ومن هنا أهمية وضرورة تفكيك هذه الخطابات والأنساق المنمِّطة وإعادة قراءتها من منظور مغاير للمنظور المتمركز على الذكورة، لأن هذه الخطابات بأنساقها الماورائية هي بمثابة النسق التبريري المصاحب لممارسة العنف ضد المرأة، ومن ثم فإنها بمثابة الخطاب الخفي الذي يضفي نوعاً من الشرعية الصريحة أحياناً والضمنية أحياناً أخرى على الممارسات العنيفة ضد المرأة. وهكذا فإن تفكيك تيمة العنف ضد المرأة في هذه الخطابات ومساءلتها باستمرار عما ترسِّمه من صور وتمثيلات نمطية ومنمّطة للمرأة يكتسي أهمية خاصة، إذ بدون نقد ونقض هذه التيمة وتعنيفها على مستوى هذه الخطابات لا سبيل لمواجهة العنف الواقع على المرأة حتى وإن أجريت بعض التحسينات التشريعية على المستويات الأخرى السياسية والاقتصادية والأحوال الشخصية.. إلخ. ذلك أن محنة المرأة مع العنف أساساً محنة ثقافية وتصورية، فالعنف الموجه ضدها هو بالأساس حالة عقلية متولدة من استيهامات تخيلية وتخييلية من نتاج الثقافة؛ ولذا-من أجل تغيير هذه الوضعية التصورية والمعرفية للمرأة في المخيلة الثقافية الذكورية، وكذلك أيضاً بدرجة ما في المخيلة الثقافية الأنثوية، ذلك أن تلك الأخيرة ليست بريئة تماما من ممارسة العنف تجاه ذاتها ونوعها- فإنه لا بد من أجل إعادة تأهيل مؤسسات المجتمع المختلفة لاستقبال صور أخرى للمرأة غير مؤسسة على تصورات قبلية، من ممارسة نوع عنيف من المراجعة والمساءلة والنقض للصور النمطية العنيفة المهيمنة سواء على الوعى أو اللاوعى. ولا شك أن خطابي هذا يبدو عنيفاً، وهذا بدوره يقودني مرة أخرى إلى إشكالية العنف على المستويين الأنطولوجي والنظري وإلى عنوان الندوة - الذي يعكس توجهاً عاماً- وما ينطوي عليه من تضارب أو تناقض أو لنقل بالأحرى من إحراج على المستويين النظري والعملي، وهو ما يتمثل في عبارة «طرق اجتثاثه»

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 222

الرد والرد ربما بأوصاف أقسى من هذا أو يدفعني إلى الصمت الذي قد يؤوله البعض أيضاً عل أنه نوع من التعالي أو الازدراء الذي لا يخلو بدوره من العنف، هذا على الرغم من أن هد في وهدف المستمعين أو القراء هو التواصل حول الموضوع المطروح . بالطبع لا توجد مثل هذه الضمانة حتى في حالات صدق النية المطلق.

وعلى سبيل المثال فلننظر للشاهد الراهن، وهو عبارة (اجتثاث العنف) فهل كل ما أشرت إليه أو سأشير إليه كان في مخيلة صائغتها أو صائغها، أو لنقل صائغيها؟ في الأغلب لا، إلا أن هذا لم يمنعني من أن أقرأ فيها كل ما قرأت وأن أمارس عليها كل ما مارست أو سأمارس من عنف، لكن تظل هناك ملاحظة مهمة، وهي أن هذا العنف غرضه التواصل وأنه جزء من نسيج التواصل ذاته، هذا التواصل الذي يحوي في طياته نقيضه (عدم التواصل)؛ ليصبح هو ذاته موضوعا للتواصل وعدم التواصل أيضا هكذا دواليك. وتلك إشكالية أخرى من إشكاليات العنف، وهي تواصل العنف وعنف التواصل.

إن هذا المنظور الذي يقرن الكلام بالعنف يعيه جيدا الشعراء و البلاغيون واللغويون العرب، خصوصا البلاغيين واللغويين المعتزلة، كما نجد لدى كل من الجاحظ وابن جنى، ولهذا نجد الجاحظ في مفتتح كتابه «البيان والتبيين» يستعيذ على نحو تلاعبي من فتنة القول (٥) كما نجده يرصد ثيمة عنف الكلام في المأثور عموماً من قرآن وحديث وشعر وعبارات مرسلة؛ ليدلل على قوة فعل الكلام وما يتولد منه من عنف، وكونه هو ذاته فعلاً عنيفاً، فيورد شواهد تقرن مثلاً بين الكلام والعورة، كما هو قول أبي العباس الأعمى:

إذا مات منهم سيد قام سيد ... بصير بعورات الكلام زميتُ (٦)

أو قول الجهينة:

بصير بعورات الكلام إذا التقى ... شر يجان بين القوم حق وباطلُ (٧)

أو قول آخر:

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 223

التي تتيح تواصلاً شفافاً صافياً، دونما لبس أو التباس أو احتمال تأويلات متعددة، فضلاً عن المراوغة والكذب، واللغة كلها إخلاف واختلاف ومتورطة تماما في ألاعيب القوة؟

ثم، سادسا، أين يمكن أن يوجد، بعيداً عما لدى كل من جرايس وهابر مس، هذا المتكلم المثالي وذلك المستمع النموذجي اللذان تقوم عملية التواصل لديهما على مفهوم التعاون، ثم حتى لو كانا صادقين في رغبتيهما في الإفهام والفهم الكامل فهل ينجحان، ثم ماذا عن طرف ثالث يفهم من تواصليهما المفترض شيئاً آخر تماماً عما أراد كل منهما أن يُفهِمَه أو يفهمه؟

٢-العنف اللغوي

وهذا بدوره يثير مشكل العنف اللغوي وإساءات الفهم غير المقصودة والمقصودة، وما يتولد منها من عنف بداية من أبسط مخاطبات الحياة اليومية، وما قد تنطوي عليه أو توحي به من تعريض أو تلقيح أو سخرية وتهكم أو غمز ولمز،فضلاً عن صيغ التهديد والوعيد والزجر والتوبيخ والسب الصريحة، وما إليها مروراً بالخطاب الدبلوماسي وما قد يحويه من مناورات لغوية عديدة : من مراوغة وتضليل وعبارات ملتبسة وأخرى مطاطة وفضفاضة، ناهينا من الأدب الذي يفكك و يقوض الشفرات اللغوية المعتادة في ظل ما يمارسه من عنف منظم على اللغة. وفي سياق كل هذا يبدو العنف متغلغلاً في أكثر وسائط التواصل الإنساني شيوعا وهي اللغة. وهو بالطبع ما يعنى مأزقاً آخر نظرياً وعمليا على مستوى محاولة اجتثاث العنف، فبفرض أنني أردت أن يكون خطابي هذا مفهوما للحضور ولكل قارئ قد يقرؤه وأنني كنت بالفعل صادق النية والقصد في محاولتي تلك فهل من ضمانة لعدم إساءة الفهم الذي قد يدفع البعض للرد علي، مثلا، واتهامي بعدم الفهم للموضوع أو بضيق الأفق أو بالنظرة السطحية أو بالتعميم أو بالتعالي وبالتحليق النظري أو بالمراوغة وعدم الدخول في صلب الموضوع... إلخ، أو حتى بالتحريض على العنف مما قد يدفعني إلى

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 224

الانسلال والولوج والنفاذ إلى ما تعجز الإبر عن النفاذ إليه، ضمن ما يورده لنا أيضاً الجاحظ، حيث يقول طرفة:

رأيت القوافي يتلجن موالجا   تضايق عنها أن تولجها الإبر

كما نجد الأخطل يتناص مع طرفة فيقول:

حتى أقروا وهم منى على مضضٍ   والقول يُنفذُ ما لا تُنفذُ الإبر(١٨)

كما نجد هذه الصورة التي تقرن الحرب الفعلية بالكلام:

فإن النار بالعودين تذكى   وإن الحرب أولها الكلامُ (١٩)

٣-صمت العنف/عنف الصمت

ونظراً لهذا العنف المتأصل في اللسان والكلام، والمقترن به سواء على مستوى ذاته أو على مستوى ردود الفعل المتولدة منه نجد العديد من المأثورات التي بمفارقة لافتة تحرض على الصمت وتعنف اللسان والكلام بكلام هو ذاته عنيف، مثل «اللسان سبع عقور» و «ليس شيء أحق بطول سجن من لسان» و «مقتل الرجل بين فكيه» و «ما أعطى العبد شراً من طلاقة اللسان» (٢٠) رافعة قيمة الصمت والسكوت على قيمة الكلام عبر استعارتي الذهب والفضة المتمثلة في عبارة «لو كان الكلام من فضة، لكان السكوت من ذهب» (٢١) مما حدا بالجاحظ إلى أن يؤلف رسالة كاملة بعنوان «تفضيل النطق على الصمت» وإذا كان الجاحظ قد رصد تيمة عنف الكلام على هذا النحو، فإننا نجد ابن جني يؤثل لعنفية الكلام في سياق مفهومه للاشتقاق الأكبر، أو ما يمكن أن نطلق عليه «اقتران الحقل الدلالي بالحقل الفونيمي» فيرى أن الكلام والكلم مشتقان دلالياً من ظاهرة تنتمي إلى نطاق العنف الجسدي، وهي الكَلم أي الجرح، وهو ما يعني أن الكلام مستعار من الجرح. ويعلق ابن جني معللاً ومفسراً دوافع هذا الاشتقاق بأن الكلام «سبب لكل شر» (٢٢)

وبالطبع فإن هذه الاستعارة تكشف عن مدى حساسية الثقافة العربية لعنف وقوة الكلام. وابن جني لا يكتفي بهذا، بل يرى أن كل التقليبات الفونيمية لمادة «ك.ل.م»

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 225

ولا قائلٍ عوراءَ تؤذي جليسَه ولا رافعٍ رأساً بعوراء قائلِ (٨)

فالكلام إذاً وفق هذه الشواهد وسيلة للتعرية وكشف العورات والفضح، مما يجعله سلاحا خطيراً من أسلحة العنف الرمزي. وهو ما تجسده الآية القرآنية الكريمة في وصف المنافقين: «فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد» (٩) كما نجده يستشهد بشواهد أخرى تقرن اللسان والقول و الكلام بأنواع الأسلحة المختلفة مثل قول حسان للنبي حين سأله ما بقى من لسانك فأجابه «والله أن لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه» (١٠).

فاللسان هنا في حدة شفرة الموسى، و في غلاظة وصلابة أية آلة قادرة على فلق الصخر.

وإذا كان هناك من يرى أن جرح اللسان كجرح اليد (١١) أو أن لسانه كالمقراض الخفاجي ملحباً، أي قاطعا (١٢) أو أن لسانه صارم كذباب السيف ما مس قطع (١٣) أو أن تراشق الألسن كالتراشق بالنبال (١٤) فإن هناك من يرى أن العنف اللغوي أعنف من العنف الجسدي حيث جراح السيف تبرأ بالمداوة في حين جراح اللسان جراح خالدة على أبد الدهر:

وجرح السيف تدمله فيبرا ويبقى الدهر ما جرح اللسان (١٥)

وهو ما نجده أيضاً في حديث النبي «والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام» (١٦)

كما نجده في هذه الصورة التدميرية التي يستشهد بها أيضاً الجاحظ لمحمد بن زياد:

وسبًّا يود المرء لو مات قبله كصدع الصفا فلقتَه بالمعاولِ (١٧)

حيث يبدو جبروت العنف اللغوي أو اللفظي بكل ما يخزنه في تضاعيفه من عنف رمزي هنا أقسى وأعنف بكثير من الموت ذاته، بل دافعاً إلى تمنى الموت بأثر رجعى. كما نجد هاتين الصورتين الدالتين على العنف الرهيف للشعر وقدرته على

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 226

ورجلاً، للكثير من الإكرهات العنيفة لهذا الوجود بالرهان على الآخر فيه وعلى الآخر عموماً، وهو ما لا يتولد غالباً إلا تحت ضغط وعنف ووطأة الحاجة والأزمة، على نحو يوجزه القولان المأثوران «الحاجة تفتق الحيلة» و «الحاجة أم الاختراع» ومن ثم يمكن القول: إن العنف على إطلاقه ليس شراً مطلقاً مثلما أن غيابه المطلق ليس خيراً على الإطلاق سواء بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة. وكأنه هكذا تماماً مثل مادته اللغوية في العربية يحتمل النفع والضرر : يحتمل أن يقلب فيصبح «نفع» كما يحتمل أن يقلب فيصير «عفن». هكذا يبدو العنف وكأنه يتأرجح بين حدي الضرر والنفع، بين قطبي المنفعة - الربح - الكسب و/ التعفن والتحلل والفساد.

وهكذا وفي ظل كل ما سلف فإنني أتصور أن القول بإمكانية اجتثاث العنف لا تقل في طوباويتها العنيفة عن تصور، مثلاً، أن السلام هو الخيار الاستراتيجي الوحيد للدول العربية (على نحو ما قال الرئيس المصري في مؤتمر القمة العربية في مصر عام ٢٠٠٠).

مع ذلك تظل هناك حاجة إلى فهم الدافع وراء التلفظ بعبارة عنيفة إلى هذا الحد، وتحوى في طياتها وربما رغماً منها، كل هذه اللوازم.

في تقديري إنها يمكن أن تفهم بوصفها تعبيراً انفعالياً عن استياء وغضب حاد بلغ ذروته من كم وكيف العنف واتساع دوائر دواماته المتلاحقة وبوصفها صرخة دالة على نفاد صبر مطبق يوشك على الانفجار إزاء وطأة العنف الضاغطة على النفوس والأجساد، صرخة تحوي في طياتها وصداها ما يجاوز حدود العنف الواقع على المرأة إلى العنف عامة، حتى وإن لم تصرح بذلك، وكأنها تُضمر على مستوى اللاوعي أن العنف إذا توقف إزاء المرأة سيتوقف على كافة الأصعدة الأخرى.

إلا أن مثل هذه الصياغة لا تساعد في تصوري على المواجهة الفعالة للعنف الواقع على المرأة، ليس فقط لأنها تُرسِّم المرأة بوصفها كائناً مثالياً إلى هذا الحد، وإنما وهو الأخطر والأهم ، لأنها تُرسِّم المرأة بوصفها كائنا ضد الحياة، ومن ثم تضفي

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 227

فيما عدا «ل.م.ك» تقترن بالقوة والشدة (٢٣) ثم سادساً، وبعد هذا التطواف الطويل للتدليل على اقتران الكلام بالعنف، دعونا نتساءل عن المقتضيات التي يتطلبها الإنفاذ لمثل هذه الرغبة أو الحلم في «اجتثاث العنف»، وما النتائج التي يمكن أن تترتب على نجاح مثل هذا الإنفاذ؟

وفي تقديري أن مقتضيات هذا الإنفاذ لا تخرج عن أحد احتمالين: إما الصمت المطبق على نحو مايدعونا دعاة الصمت في الثقافة العربية، مما يعني اللاتواصل والعزلة المطلقة، وهو خيار يقترن بالموت على حد ما يصوره أبونواس في قوله:

مت بداء الصمت خيرٌ لك من داء الكلام (٢٤).

وإذا كان هذا الخيار بالطبع خياراً مستحيلاً، فضلا عن كونه بالغ العنف، فإنه لا خيار آخر لإنفاذ مثل هذه الرغبة سوى التدويم المطلق للعنف عبر كافة الوسائل والأسلحة المتاحة والممكنة. وهو ما يعني أن أية محاولة لاجتثاث العنف تماماً وجذرياً لن تكون سوى بمثابة ضخ دماء جديدة في جسد العنف، أي تمديد العنف وتدويمه إلى أقسى وأقصى حد ممكن! وهي بالطبع مفارقة أخرى من مفارقات العنف، وأحد الأسباب التي تجعله إشكاليا إلى هذا الحد.

ثم ألن يكون ناتج هذا، إذا ما افترضنا النجاح في إنفاذ هذه الرغبة، هو الإفضاء إلى ما كان سيفضي إليه المشروع الشهرياري إذا ما بلغ ذروته ولم تظهر شهرزاد، ألن يكون؛ بحكم أن الرجل هو المصدر الأساس للعنف الواقع على المرأة، تصفية لأحد شقي الحياة، مما يعني فناء عاجلاً للحياة الإنسانية برمتها؟

ثم، سابعاً، هل حقا من مصلحة الإنسان، رجلاً أو امرأة أن يتخلص، أو لنقل أن يتخلصا، من كل صور العنف، هل ستكون الحياة بالضرورة أجمل بدون أي عنف؟ وهنا أرجو ألا يفهم من سؤالي هذا أي نوع من أنواع الترويج المطلق للعنف، لكن هذا أيضاً لا يعني أنني ضد كل أنواع العنف، مادام العنف ضرورة من ضرورات الحياة وأحد الإكراهات الخلاقة للوجود الإنساني المشروط، حيث يدين الإنسان، امرأة

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 228

المرأة وفي توليده لنصوص أخرى عنيفة، وهو نص عقاب المرأة في سفر التكوين حيث يخاطب الرب الإله المرأة قائلاً:

« تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (٢٧) وفيما يبدو أن هذا النص تتولد منه نصوص أخرى أيضاً في التوراة خاصة بالمرأة حيث نجد في سفر اللاويين علامات جسدية أخرى خاصة بالمرأة تبدو وكأنها لعنة « وإذ حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجساً إلى المساء، كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجساً وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكل من مس متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكل من يلمس شيئا كان موجوداً على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجساً إلى المساء(٢٨) ...». كما نجد أيضا، في السفر ذاته، بخصوص ولادة المرأة أنه « إذ حملت امرأة وولدت ذكراً تظل الأم في حالة نجاسة سبعة أيام كما في فترة الحيض. وفي اليوم الثامن يجرى ختان الطفل. وعلى المرأة أن تبقى ثلاثة وثلاثين يوماً أخرى إلى أن تطهر من نزيفها، فلا تمس أي شيء مقدس ولا تحضر إلى المقدس، إلى أن تتم أيام تطهيرها.

وإن ولدت أنثى فإنها تظل في حالة نجاسة مدة أسبوعين وتبقى ستة وستين يوما حتى تطهر من نزيفها..» (٢٩). وبداية نلاحظ هذا التضعيف للنجاسة أو هذه النجاسة المضاعفة في حالة ولادة الأنثى لأنثى ،فضلاً عن أن العنف الموجه ضد المرأة عبر هذه النصوص ليس عقاباً محدداً بزمن أو مدة أو عمل محدد، بل إنه عنف أزلي أبدي، وكأنه تكفير أزلي - أبدي، أو مثلة أشبه بمثلة برومثيوس، وإن كان برومثيوس قد وجد هرقل ليحرره ويفك قيوده من لعنة زيوس (٣٠) فإن تحرير حواء من هذه الشروط الجسدية لن يعنى سوى اجتثاثها، ومن ثم اجتثاث الحياة . لكن ترى إذاً، ماذا كان سيحدث لو أن كل هذه العلامات التي كتبها الرب الإله على جسد حواء قد

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 229

على المرأة صفات شهريارية.

وهنا فإن السؤال يطرح نفسه كيف يمكن إذاً التعامل مع العنف، العنف عامة، والعنف الواقع على المرأة على وجه الخصوص، مادام حلم اجتثاثه هو خارج شروط إمكان الحياة ذاتها ومادام اجتثاثه يمثل تهديداً بزوال الحياة وفنائها؟

قد يكون الرد السياسي والقانوني هو المزيد من التشريعات القامعة والرادعة للعنف والمزيد من تعزيز التشريعات الحامية للمرأة، إلا أن هذا وحده رغم أهميته ، لا يكفي، وربما كانت له ردود فعل سلبية وأشد عنفاً، إذ قد يؤدي ، على حد ما يذكر هابرس ماس، إلى أن تصبح (كل العلاقات الاجتماعية مصوغة قانونياً، بين الآباء والأبناء، المدرسين والتلاميذ، بين الجيران...) إذ إن «هذه الإصلاحات القانونية وإن كانت تصحح أحياناً العلاقات القديمة للسيطرة فإنها تولد (ما يطلق عليه) اندثاراً بيروقراطياً للتواصل» [٢٥] فضلا عن الإمكانية الدائمة لاختراق القوانين والتحايل عليها، مادام أن القوانين تسن دائما لكي تخترق) على حد ما يذهب أمل دنقل [٢٦]، خصوصا في ظل بطء العربات القانونية لدينا. ومن ثم فإن العنف لا تجدى معه صيغة واحدة فقط، وإنما يحتاج إلى ترسانة كاملة من الإجراءات وحس ذكي قادر على اختيار الإجراء أو الإجراءات الأكثر تجاوباًمع الموقف، كما يحتاج تآزر جهود متضافرة على مستوى كافة مؤسسات المجتمع، وخصوصاً المؤسسات الدينية والأسرية والتعليمية والإعلامية والثقافية، فضلا عن الدور المنوط بمؤسسات المجتمع المدني غير الحكومية. و في جميع الأحوال فإن العنف يتطلب مواجهة الصور النمطية المولدة للعنف و مفاوضتها على مستوى الذات وعلى مستوى الآخر وعلى مستوى الوعي و اللاوعي الجمعي عبر آليتين متزامنتين من التفكيك وإعادة البناء على نحو ما تعلمنا شهرزاد في درسها الذي لا ينفد.

٤- جسد المرأة وعنف المحكى

وهنا سأحاول قراءة نص بالغ القصر إلا أنه بالغ العنف في تأسيسه للعنف ضد

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 230

جسدياً وغائر في جسدها، هكذا ومن خلال هذه الحكاية الأولى والكبرى لجسد حواء وللقانون والعقاب والتكفير أمكن اشتقاق كل ما يرتبط بنفس حواء وعقلها، ومن هذه الحكاية الكبرى أيضاً يمكن الزعم أنه تم تجنيس العنف كما تم تعنيف الجنس، ومن هذه الحكاية أيضاً يمكننا أن نقول: إن العقوبات الجسدية،العقوبات المكتوبة على الجسد، كالكي والبتر والخصاء والختان... وكل صور التمثيل الجسدي والمثلة قد تعززت، فضلاً طبعاً عن تأسيسها للتفاوت كأصل طبيعي مما يعني أيضاً أن حواء كانت ضرورية، أو لنقل: إن جسد حواء كان ضرورياً لتأسيس فكرة السلطة والتسلط والسيادة. وكأن جسد حواء كان شرط إمكان تبرير التسلط ،والأهم من كل ذلك أنه كان شرط تبرير العنف وإعادة تسميته بأسماء من قبيل العدل والعدالة والقصاص والعقاب والقضاء والحق، أي إنه كان شرط إمكان إضفاء الشرعية على العنف، أي إخفاء العنف عبر إعادة تسميته؛ ومن ثم تسمية كل عنف ثانٍ باسم غير اسمه. وهكذا تحولت المرأة من كونها مُعيناً نظيراً للرجل على حد العبارة التكوينية إلى موضوع للتسلط والعبرة.

وتتمثل خطورة هذا الخطاب في أنه اخترق الثقافات الإنسانية الأخرى؛ إذ تبنته مؤسسات التأويل في الثقافة الإسلامية، إذ نجد تناصات عديدة معه في سياق التفسير للظواهر الجسدية والنفسية والذهنية والحقوقية لحواء، هذا على الرغم من أن النص القرآني لم يميز في العقوبة بين آدم وحواء، إذ لم ينص على شيء أكثر من إقصائهما من الجنة، ولم يؤول قط أي ظواهر فسيولوجية مرتبطة بجسد المرأة بوصفها عقاباً أو عقوبة، مع ذلك فإننا نجد نص وهب بن منبه الذي يورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ضمن كتاب النساء ليتماهى تماماً مع عنف النص التوراتي إزاء المرأة؛ إذ يقول: «عاقب الله المرأة بعشر خصال:

١- شدة النفاس

٢- وبالحيض

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 231

فسرت بوصفها جزاءً وثواباً، بوصفها مكافأة أو عطية وهبة وهبها الإله لها جزاء فضولها الجميل ومبادرتها الفريدة التي بددت عمى آدم وغشاوته الأولى؛ ليدرك جسده وجسدها، جزاء هبة المعرفة التي وهبتها له ولنسله، هل كانت كل هذه العلامات ستُقرأ بوصفها عنفاً حتى وإن كانت مؤلمة؟

إن هذا السؤال الافتراضي يتجاوز كونه مجرد سؤال بلاغي، لأنه يهدف إلى التدليل على أن عنف الخطاب أعنف بكثير من عنف الظواهر التي يفسرها. إذ إن الخطاب المفسِّر للعنف المصيري البدني الواقع على حواء هنا يتضاعف ويتحول إلى عنف نفسي لا يُحتمل؛ إذ يجعل علاقة المرأة مع جسدها علاقة رفض مبدئي وعدم توافق، لقد أصبح الجسد موضوعاً للعنة، وكل العلامات المشار إليها تتحول إلى علامات حضور أبدي لهذه اللعنة. وفي ظل عنف هذا الخطاب، فضلاً عن عوامل أخرى عديدة، علينا دراسة وقراءة ظواهر أخرى من قبيل رفض الإنجاب والإجهاض ونزع الرحم من أجل عدم الإنجاب، والعنف الجنسي المعكوس مثلما حدث من ممارسات في سجن أبي غريب في العراق من قبل بعض الضابطات الأمريكيات.

لقد تحول جسد حواء إلى وسيلة إيضاح لفكرة انتهاك القانون والعقوبات، إلى جسد مكتوب عليه إعادة كتابة العقوبات في كل فعل من أفعال الجنس، وفي كل فعل من أفعال الحمل والولادة ومع كل دورة شهرية؛ إذ الدم العلامة التي هي أجلى للعنف ليس علامة على العنف الحائق بحواء، أو علامة مقترنة بثمن هبة الأمومة وعطاياها الجميلة، أو حتى شرطاً فسيولوجياً قاسياً كان على المرأة أن تتكبده في مقابل عطايا جسدية - سيكولوجية أخرى مرتبطة بعطايا الحب والأمومة كما قلنا، بل إنه علامة عنف مضاد على عنف أولي أي علامة القانون الذي ليس إلا عنفاً مضاداً لأي عنف أولي أو ابتدائي، هكذا يبدو أن القانون يَدين في جذره إلى جسد حواء، وليس إلى جسد ابنها المقتول هابيل، فالقانون وإنفاذ القانون ممثل جسدياً بل لنقل محفور

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 232

المصادر والمراجع العربية

- ألف ليلة وليلة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): «الخصائص»، ت: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، د.ت.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم): «كتاب عيون الأخبار»، ج ٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) «البيان والتبيين»، ت: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥.
- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس، مؤسسة الرسالة،القاهرة ١٩٩٩.
- آمال طنطاوي: «المهمشون في صعيد مصر» هيريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢.
- أمل دنقل: «الأعمال الكاملة»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
- صلاح جاهين، رباعيات، ص ٢٠، الأهرام، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧.
- صلاح عبد الصبور: «ديوان صلاح عبدالصبور»، دار العودة، بيروت، ١٩٨٦.
- طارق النعمان: «مفاهيم المجاز بين البلاغة والتفكيك»، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣.
- برنارد أيفلن، ميثولوجيا الأبطال والآلهة والوحوش، ترجمة حنا عبود، دار صادر، د.ت.

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 233

٣- وبالنجاسة في بطنها وفرجها

٤- وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد

٥- وشهادة امرأتين كشهادة رجل واحد

٦- وجعلها ناقصة العقل والدين لا تصلي أيام حيضها

٧- ولا يُسلم على النساء

٨- وليس عليهن جمعة ولا جماعة

٩- ولا يكون منهن نبي

١٠- ولا تسافر إلا بولي» (٣١).

هكذا يتبنى وهب المنظور التوراتي تماماً، ليس فقط ليفسر ما هو جسدي فحسب بل ليسقطه أيضاً على ما هو حقوقي وديني وعقلي واجتماعي.

وليس هذا سوى مشهد ضئيل جداً من سموات العنف المفتوحة على المرأة إلى حد أصبح يدفعها إلى الانكفاء على ذاتها ونوعها، والاكتفاء بهما على نحو تكاد توجزه وتكثفه، حرفياً وليس مجازياً، وصية (القرندل) فى «الأميرة تنتظر»:

يا امرأة وأميره

كونى سيدة وأميره

لا تثنى ركبتك النورانية في استخذاء

في حقوي رجل من طين

أياً ما كان

وغداً أوشهماً

عملاقاً أوأفاقاً

ولتتلقى ألوان الحب، ولا تعطيه

اضطجعى مع نفسك

ولتكفك ذاتك (٣٢)

٢٢- ابن جني، الخصائص، ج١، ص ١٤.
٢٣- المصدر نفسه، ص ١٣-١٧.
٢٤- البيان والتبيين، ج١، ص ٢٦٩.
٢٥- حوارات في الفكر المعاصر، إعداد وترجمة محمد سبيلا ،ص٩٤، وأنظر أيضاً آمال طنطاوي، المهمشون في صعيد مصر آليات السيطرة والخضوع ص ١٨.
٢٦- يوميات كهل صغير السن، البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، الأعمال الكاملة ، ص٩٧.
٢٧- سفر التكوين الإصحاح ٣، آية ١٧.
٢٨- اللاويين، الإصحاح، ١٥،١٩-٢٤.
٢٩- اللاويين الإصحاح ١٢، ٢-٦.
٣٠- حول أسطورة برومثيوس، وتخليص هرقل له، انظر أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، ١٠٠،١٠١، وانظر أيضاً برنارد أيفلن ، ميثولوجيا الأبطال والآلهة والوحوش ، ترجمة حنا عبود، ص ص٦٣،٦٦.
٣١- ابن قتيبة، عيون الأخبار ج ٤، ص ١١٣.
٣٢- صلاح عبد الصبور، الأميرة تنتظر، ضمن الأعمال الكاملة، ص ٤٣٨.

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 235

المراجع المترجمة

- حوارات في الفكر المعاصر، إعداد وترجمة محمد سبيلا، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩١.
- مانفريد فرانك: «حدود التواصل: الإجماع والتنازع بين هابرماس وليوتار»، ترجمة وتعليق عز العرب لحيكم بثاني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٣.

١- صلاح جاهين، رباعيات، ص ٢٠، الأهرام، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧.

٢- المصدر نفسه، ص ١٩.

٣- صلاح عبد الصبور، مأساة الحلاج، ديوان صلاح عبد الصبور، المجلد الأول والثاني، دار العودة، بيروت، ١٩٨٦.

٤- صلاح جاهين، رباعيات، ص ٦.

٥- انظر: الجاحظ، البيان والتبيين،ج ١، ص ٣.

٦- المصدر نفسه، ص٢٣٣.

٧- المصدر نفسه، ص٢١٥.

٨- المصدر نفسه، ص٢١٦.

٩- (الأحزاب:١٩)، وانظر: البيان والتبيين، ج ١، ص ٨.

١٠- البيان والتبيين، ص١٦٣.

١١- انظر: المصدر نفسه، ص١٥٦.

١٢- المصدر نفسه، ص١٥٩.

١٣- المصدر نفسه،ص١٦٧.

١٤-انظر: المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

١٥- المصدر نفسه، ص ١٦٧.

١٦- المصدر نفسه،ص٢٧٣.

١٧- المصدر نفسه، ص ١٥٧.

١٨- المصدر نفسه، ص ١٥٨.

١٩- المصدر نفسه، ص١٥٨.

٢٠- المصدر نفسه، ص ١٩٤.

٢١- المصدر نفسه، ص ٢١٧.